

2 / لسانیات دو سوسیر

(کتاب : محاضرات فی اللسانیات العامة)





2/ لسانيات دو سوسير (كتاب : محاضرات في اللسانيات العامة)

تمهيد:

يعدّ العالم السويسري "فرديناند دي سوسير" (1857-1913)¹ أحد أعظم علماء عصره ولا سيما ما تعلّق بالنتاج اللساني، وما تركه من مفاهيم وأُسُس قعدت لعلم فارق سُمّي باسمه: "لسانيات دو سوسير"، ولعل لنزوع هذا الرجل إلى البحث النظري كان له الأثر البالغ في طلابه الذين خلّدوا محاضراته التي كان يلقيها عليهم، من خلال جمعها وتصنيف مفاهيمها في ما نعرفه اليوم بكتاب "دروس في اللسانيات العامة"²، ولم يكن ذلك الجهد سببا في تأسيس مدرسته (مدرسة جنيف) وحسب، بل جعلت منه مؤسسا لعصر بأكمله من الدرس اللساني؛ من حيث شكّلت أفكاره وتصوراته اللسانية الأولى المنبت الأول للسانيات البنيوية الحديثة.

أبرز فرديناند دي سوسير في مقدمة كتابه "محاضرات في الألسنية العامة" Cours de Linguistique Générale "أنّه توجد مهمة أساسية لكل علم، يجب أن تُحد وأن تُعرف في ذاتها، وبالنسبة لعلم اللّغة فإن ذلك مهم بوجه خاص لأن كثيرا من العلوم من جهة تعني الإنسان، ومن ثمّ باللّغة الإنسانية أيضا، ومن جهة أخرى قد بيّن الماضي أيضا أن علم اللّغة في خطر أن

¹ - ولد فردينان دي سوسير في جنيف عام 1857 من عائلة عريقة أعطت العديد من العلماء، نشر- في سنة 1879 رسالة عنوانها « رسالة في التنظيم البدائي للمصوّتات في اللغات الهندو-أوروبية»، في سنة 1880 حصل على درجة الدكتوراه بعد أن تقدم بأطروحته التي تناولت اللغة السنسكريتية، «طلب إليه سنة 1881 التعليم في معهد الدروس العليا في باريس ودام تعليمه في هذا المعهد مدّة عشر- سنوات نشر- خلالها عدة مقالات في مجلة Mémoires de la société des linguistes التي أصبح أمين سر مساعد فيها سنة 1882. عاد إلى بلده جنيف سنة 1891 حيث مارس التعليم في جامعتها إلى أن توفي سنة 1913. وقد درّس مادة الدراسات اللغوية المقارنة. الّا اهتماماته بقضايا اللغة بصورة عامة، بدا ظاهرا إلى حدّ كبير في محاضراته. والجدير بالذكر أنه قام بسلسلة محاضرات في الألسنية العامة سنة 1906-1907 وسنة 1908-1909 وسنة 1910-1911. وهذه المحاضرات هي التي كوّنّت كتاب « دروس في الألسنية العامة ». [ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديثة) المبادئ والأعلام، بيروت- لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- والتوزيع، 1983، ص 223-224].

² قدّم سوسير أفكاره وفلسفته في هذه المحاضرات التي ألّفها بين عامي 1906 و 1911، وجمعها بعد وفاته تلميذاه: سيشهاي (Sechehay) وبالي (Bally)، ونشرها عام 1916. ينظر: إبراهيم عطية، قراءة في كتاب المدارس اللسانية لأحمد عزوز، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 87، ج 4، ص 1140.



تمتصه علوم أخرى وبخاصة علم النفس وعلم الفلسفة، "ذلك أنّ المجال الذي يتحرك فيه قطب الألسنية مجال يتّسم بشدّة الاتساع والتشعب، إذ بوسع الدارس أن يباشر أيّ حدث لغوي ويدرسه دراسة علمية من زوايا عديدة مختلفة اختلافا شديدا، وهي على اختلافها تتّصل بالحدث اللغوي اتّصالا وثيقا"¹. ولذلك يتواتر كثيرا عند الدارسين مقولته الشهيرة التي مفادها: "إنّ موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنّما هو اللغة في ذاتها ولذاتها"².

من هذا المنطلق يوافق سوسير على احتكاك اللسانيات بتلك العلوم المجاورة، غير أنّه يجب أن يبدأ من موقع كونه علما مستقلا بذاته، ويتبع ذلك أن يحدّد موضوعا خاصا وأن يطور مناهج خاصة لبحثه، ولعلّ أول تحديد لأسس العلم وموضوعه بدأ من الفصل بين ثلاثيته الشهيرة: اللغة: Langage (الخاصية الإنسانية بعدّها نظاما ذهنيا مجردا ومنظما)، واللغة المعينة Langue (اللسان)، والكلام parole (التحدث)، وقد ميّز هذه المفاهيم بعضها عن بعض على النحو الآتي:

أولا/ قضايا اللسانيات السوسيرية بين التداول والمصطلح:

بدايةً، لا بدّ من معرفة أنّه توجد صعوبة كبيرة، في محاولة التفريق بين الاصطلاحين؛ في ظلّ التداخل الاستعمالي المجسّد للتداخل المفهومي على مداري الفهم والاصطلاح، فاللسان Langue واللغة³ Langage يبدوان اصطلاحين مترادفين في قاموس الحياة اليومية، لكنهما مختلفان تماما في المفهوم العلمي، وإن كان بينهما من التداخل ما لا يخفى⁴، وسيّضح هذا من

¹ محمد الشاوش: سوسير والألسنية، ضمن المؤلف الجماعي: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990، 10.

² محاضرات في اللسانيات العامة، تر: القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجيبة - الدار العربية للكتاب، ليبيا طرابلس وتونس، 1985، ص347.

³ - يذهب "جان ديبيوا" إلى أنّ: مفهوم اصطلاح "اللغة" هو قدرة طبيعية، مثل الظواهر الأخرى كالمشي، والأكل؛ لأنها تختص بمناطق محدّدة في الدماغ". ينظر:

Jean Dubois: Dictionnaire de linguistique, La Rousse, Paris- France, 1^{ed}, 2002, p 346 .

⁴ - أحمد حاطوم: اللغة ليست عقلا من خلال اللسان العربي، دار الفكر اللساني، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت، ص: 137، 138.



خلال معرفة أنّ "اللغة" عند "دوسوسير" هي: ملكة وقدرة طبيعية؛ أمّا اللسان فهو القسم الأول منه¹، ويتجلى هذا من خلال ترجمة: "أحمد حسّاني" إلى العربية بقوله: "هي الملكة الإنسانية التي تتجلى في تلك القدرات الفطرية التي يمتلكها الإنسان دون سواه"².

صحيح أنّ لكل من "اللغة" و"اللسان" مفهومه الخاص، ولكن هذا لا ينفي علاقة الاحتواء بينهما؛ لأنّ "اللسان" ينتمي إلى المجال الاجتماعي "فهو النظام التّواصلي الذي يمتلكه كل فرد متكلّم، مستمع ينتمي إلى مجتمع (لساني) متجانس"³، فلا يمكن إذن، اختراقه والتّصرف فيه؛ لأن ذلك التّجاوز، والإبداع يتجسّدان في الكلام الذي يعدّ خصيصة فردية في الدّراسات الحديثة التي جاءت مطابقة لما جاء في "القرآن الكريم" من استعمال اصطلاح "اللسان" بدلا من اصطلاح "اللغة" لقوله عزّ وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ [سورة إبراهيم، من الآية: 4] .

وما تجدر الإشارة إليه، أنّه على الرّغم من توفّر "الوعي اللّساني" في كافة أبعاده، وهذا ما اتضح لنا بعد تحديد "دو سوسير"، وتأطيره المفاهيم الاصطلاحية الثلاثة، وبعد تأصيل "حاطوم"، وتبني "حسّاني"؛ إلّا أنّ هذا لم يمنع من ارتكاب الأخطاء استعمالاً وفهماً واصطلاحاً. ويجمل سوسير السّمات المميّزة للسان في أربعة ميزات:

- اللسان جزء اجتماعي من اللغة، ومستقل عن الفرد الذي لا يمكن أن يخلقه ولا أن يغيّره لنفسه وحده، فهو ينشأ على أساس نوع من الاتفاق بين أعضاء الجماعة، ويمكن أن يُدرس مستقلا عن الكلام، إذ يتمّ دراسة أنظمة لغات ميتة لم تعد تُتحدّث، لكنها تُبحث وتُعلّم.

- اللسان حسب طبيعته متجانس في ذاته، ونظام من العلامات، كلاً جانبية نفسي.

- كل ما يتعلّق باللغة يمكن تحديده، وأداة ذلك الكتابة.

السؤال الذي يتوجب أن يطرحه الطالب على أستاذه أو على نفسه في غمرة هذا التداخل مؤداه؛ هل اللسان موضوع اللّسانيات أم الكلام؟ ههنا نستحضر الثنائية الأولى من ثنائيات دي سوسير

¹cours de linguistique générale, Ed1, Orotique établie par Tullion de Naura, Paris, 2005, p. 25.

²- دراسات في اللّسانيات التّطبيقية تعليمية اللّغات، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون - الجزائر، د.ط، د.ت، ص6.

³- م ن، ص ن.



(اللغة والكلام).

1 - اللغة المعينة في مقابل الكلام:

اللغة المعينة اجتماعية (فقط ما يهم الجماعة يدرج في اللغة)، فهي تستوعب ما هو جوهري، وتسعى من خلال معايير ثابتة إلى الثبات وتوجهها قواعد وهكذا: فاللغة المعينة هي شكل. الكلام هو الحديث الفعلي، فردي، يستوعب ما هو عارض بدرجة اقل أو أكثر، ويسعى إلى الدينامية، ويجيز القياسات، وهكذا: فالكلام مادة.

في الوقت الذي تفصل فيه اللغة عن الكلام فإنه يُفصل ما هو اجتماعي عما هو فردي - ما هو جوهري عما هو إضافي - وما هو عارض بدرجة أكثر أو أقل.

لاحظ سوسير بوجه عام علاقة التبادل بين اللغة المعينة والكلام: فكل فرد يجب عند الكلام أن يتبع قواعد اللغة القائمة حتى يصير مفهوما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الكلام وحده هو الواقعي، وعبر الكلام فقط يمكن أن ندرُس اللغة المعينة، وهكذا فقط: يمكن أن يقدم التغيير اللغوي وما إلى ذلك، ولكنه يُنكر على الكلام - مع ذلك - أن يكون منظماً، ولذلك يستبعد الكلام من مجال موضوع علم اللغة.

اللغة والكلام⁽¹⁾ (Langage et Parole):

اللغة ظاهرة اجتماعية عامة؛ لأنها شيء مجرّد ومستقلّ عن المتكلم عكس الكلام الذي - سواء كان منطوقاً أو مكتوباً - هو التحقيق الفعلي لقواعد اللغة عن طريق صياغتها في جمل وتعابير، وتوظيفها يتأسس على الفردية وحرية الاستعمال، بينما "اللغة فهي نتاج الجماعة، ومخزونها الذهني الذي يمتلكه، وأمّا الخطاب [الكلام] فهو نتاج فردي حرّ وإراديّ يختاره المتحدث من ذلك المخزون لعبّره عن فكره ورسالته"².

¹ - هما واقعان جرّا للسانيين والنقاد إلى احتمالهما في تحليل الظاهرة الأدبية، فتلونا بسمات اتجاهاتهم النقدية، كـ (اللغة، والخطاب ← غيوم)، و (الجهاز أو النسق، والنص ← هيلمسلاف)، و (الطاقة والإنجاز، أو التمكن والأداء ← تشومسكي)، و (النمط أو القانون، والرسالة). ينظر: رابح بوحوش: اللسانيات وتحليل النصوص، ص 44.

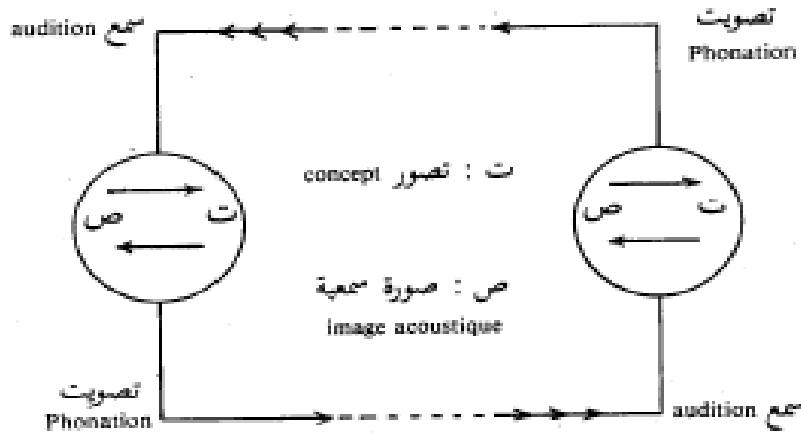
² - المرجع السابق، ص 44.



2- اللسان ودورة التخاطب:

أين يمكن أن نموقع اللسان ضمن وقائع اللغة؟ إن تحديد الدائرة المناسبة للسان في مجموع وقائع اللغة يتطلب أخذ دورة الكلام بعين الاعتبار، ويشترط الفعل الكلامي وجود شخصين على الأقل، والدماغ هو نقطة انطلاق هذه الدورة بالنسبة لأحد الشخصين إذ تترابط وقائع الذهن (التصورات) بتمثيلات الدلائل اللسانية أو الصور السمعية التي تستخدم للتعبير عن التصورات. والتصور المعطى يثير في الذهن صورة سمعية مناسبة. وهذه الظاهرة ظاهرة ذهنية في شموليتها تعقبها عملية فيزيولوجية إذ ينقل الدماغ إلى أعضاء النطق حافزا ملازما للصورة، ثم تنتشر الموجات الصوتية من فم المتكلم إلى أذن السامع، وهذه العملية فيزيائية خالصة.

وتمتد دورة الكلام بالنسبة للمستمع وفق نظام معكوس: من الأذن إلى الدماغ، أي نقل فيزيولوجي للصورة السمعية، ويتكون في الدماغ ترابط ذهني بين هذه الصورة والتصور المناسب.



من الواضح إذن أن دورة الكلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي: القسم الفيزيائي ويتعلق بالموجات الصوتية، والقسم الفيزيولوجي ويشمل التصويت والسمع معا، والقسم النفسي هو عبارة عن الصور الكلامية والتصورات، ولا بد من الإشارة إلى أن الصور الكلامية ليست الصوت لأنها ذات طبيعة ذهنية كما هو الشأن بالنسبة للتصور المترابط بها.

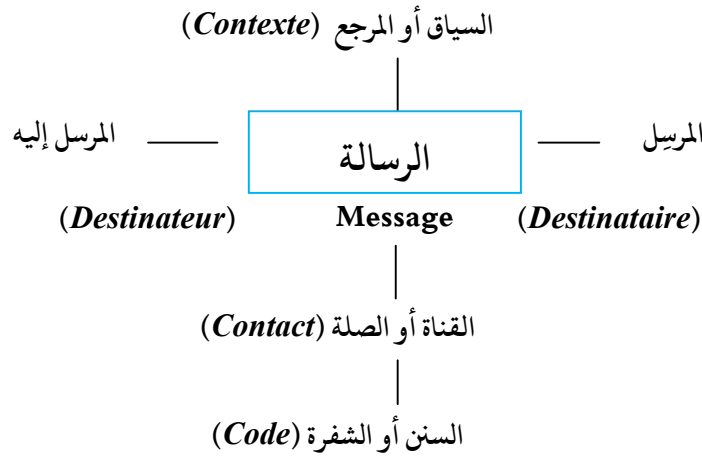
لكن يمكن لدورة الكلام أن تنقسم أيضا إلى قسم خارجي (ذبذبة الأصوات) وقسم داخلي يتضمن الأجزاء المتبقية، وقسم نفسي (ذهني) وآخر غير نفسي، وقسم فاعل (نشط) وقسم منفعل (هامد)؛ فالنشط هو كل ما ينطلق من مركز الترابط، ويتمثل في الانطلاق من التصور



إلى الصورة السمعية،(ت ← ص)، بينما القسم الهامد على العكس من الأول من حيث ينطلق من الصورة السمعية إلى التصور (ص ← ت).

3- الوظائف اللغوية الست (six fonctions du langage) :

وصف جاكبسون عملية الكلام في ظلّ النظرية التواصلية التي تجسّم المراحل التي تمر بها الرسالة من المرسل إلى المتلقي على النحو الآتي:



وتضطلع أطراف التواصل بوظائف بيانها كالآتي¹:

- 1- المرسل: وظيفته انفعالية "*Fonction émotive*" وتعبيرية "*Fonction expressive*" (وهي وظيفة تنزع إلى التعبير عن عواطف المرسل ومواقفه إزاء الموضوع).
- 2- المرسل إليه: وظيفته إفهامية (*fonction conative*).
- 3- الرسالة: وظيفتها شعرية (*Fonction poetique*) (التركيز على الرسالة بعدّها غاية في حدّ ذاتها).
- 4- السياق أو المرجع: يضطلع بالوظيفة المرجعية *fonction référentielle* والإدراكية "أو" "*fonction cognitive*".
- 5- القناة أو الصلة: وظيفتها انتباهية "*fonction phatique*" (عماد الإيصال).
- 6- السنن أو الشفرة (*Code*): وظيفة ما وراء لغوية (*fonction meta linguistique*).

¹ - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص 121-123.



إنَّ أهمَّ ما يميّز هذه النظرية هو تركيزها على الوظيفة الشعرية التي تضطلع بها الرسالة (الخطاب)، فهي وظيفة "مركزها سنن الكلام في جهاز التحوير، ويقودنا هذا الاعتبار إلى تحديد الخطاب الأدبي بأنه رسالة تركّبت في ذاتها ولذاتها، ومعناه أنَّ الكلام الإنشائي يقوم ببنيته اللغوية رقيباً على نفسه، إذ ليس منطلقه ولا مرماه أن نصف صورة من العالم الواقعي أو التجربة المعيشة فعلاً، فليس الكلام فيه أداة للإبلاغ بقدر ما هو تركيب يستمد شرعيته من بنيته وصياغته"¹.

4- الوحدات الصوتية المميزة (Les Phonème):

وهي موضع اهتمام اللسانيات الوظيفية، التي ترى أنَّ لكل لغة من لغات العالم عدد محدود من الوحدات الصوتية الأساسية، والتي تستخدمها تلك اللغة للتفرقة في المعنى بين الكلمات؛ نحو: (سار وصار)، و(تين وطين)، و(قال، وكال)، إذ وجود (السين والصاد) و(التاء والطاء)، و(القاف والكاف) في الأمثلة الثلاثة- على التوالي- هو ما يفرّق في المعنى بين الكلمتين في كل مثال، مما يدل على أنَّ هذه الوحدات الصوتية المميزة أساسية في اللغة العربية.

5- التزامن والتعاقب: (الآنية والزمانية) (Synchronie et Diachronie):

يعني المنهج الآني في الدراسة اللسانية العكوف على دراسة اللغة أو إحدى ظواهرها في حيز زمني محدد؛ كدراسة لغة شاعرٍ على ضوء ديوانه ممثلاً للغة عصره وبيئته. ومفهوم الآنية (Synchronie) يقابله مفهوم الزمانية (Diachronie)، والنسبة إليها (Diachronique)، وهي في اللسانيات المنهج الذي تدرس به ظاهرة لغوية ما عبر تطوُّرها التاريخي².

ويتكامل المنهجان الآني والزمني في الدراسات اللسانية الحديثة؛ فالزمانية ليست الخيط الرابط بين عناصر آنية مع عناصر آنية أخرى، وإنّما هي متكونة من آنيات بأسرها متتاليات³. هذه هي المنطلقات الأساسية التي أفرزت كل المدارس اللسانية النقدية، ومنها الأسلوبية البنوية، التي مرّت بمرحلتين بارزتين تمثلتا في: الأسلوبية الوظيفية: بزعامه "رومان جاكسون"، وأسلوبية التلقي والانزياح بزعامه "ميشال ريفاتير". ونستعرض في هذا المقام

¹ - عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، منشورات دار أمية ودار العهد الجديد، ط 1، 1989، ص 47، 48.

² - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص 101، 102.

³ - ينظر: رابح بوحوش: اللسانيات وعلوم اللغة العربية (أبحاث علمية موجهة لطلاب الليسانس والدراسات المعمقة)، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، ص 82.

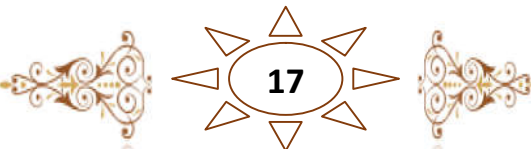


النتائج والأسس المنهجية والعلمية، التي وضعها العالمان الأسلوبيان، ومدى التقارب والتعارض بين رؤيتهما في صلب الجامع بينهما (الأسلوبية البنيوية).

وهكذا فالالتزام والتعاقب ليسا منهجين، بل هما إجراءان عامان، يتحدّد من خلالها اختيار مناهج معينة، وكان علم اللغة التاريخي المقارن قبل دي سوسير قد بحث التعاقب وحده، وعلى العكس من ذلك فإنه لا يوجد بالنسبة لمتكلم لغة ما إلاّ تزامن الصيغ في حالة لغوية معيّنة، وحلّ سوسير الاختلاف بين كليهما لصالح علم اللغة التزامني (الوصفي)، حيث يبحث كل حال لغوية دائماً تزامنياً، فالحدث اللساني عند دي سوسير إنّما يركّز أساساً على جانبين، أحدهما يتعلّق باللسان في حدّ ذاته كلسان له خصائصه ومميزاته، والثاني ذلكم التغيّر والتجدّد الذي يلامس الجانب التاريخي وعلاقته بالحدث اللساني، بعبارة أخرى هناك سياق آني زمني وسياق تاريخي لواقع هذا اللسان البشري، الأمر الذي جعل سوسير يميّز بين منهجين في تناوله للحدث اللساني؛ منهج تاريخي يُعنى بالجاني التحوّلي للحدث اللساني عبر حقبة الزمكانية، ثمّ بعدها المنهج السانكروني الذي يهتم أساساً بدراسة اللغة كما هي في الواقع دون أن يتعدى ذلك أبداً، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الدراسة اللغوية للحدث اللساني إلى ما أسماه بالنظرة التزامنية (الآنية)، والنظرة التعاقبية (التاريخية)، - وفي تقدير دو سوسير- اللّسانيات الآنية تُعنى بالعلاقات النفسيّة والمنطقية التي تربط مفردات متواجدة معاً، وتُشكّل نظاماً في العقل الجماعي للمتكلمين، وعلى العكس تماماً فاللسانيات الزمانية تدرس العلاقات التي تربط المفردات المتعاقبة التي لا يدركها العقل الجماعي والتي يحل بعضها محل البعض الآخر، دون تشكيل أيّ نظام يُذكر، (مثال النبات) و (مثال لعبة الشطرنج من شخص غير واع).

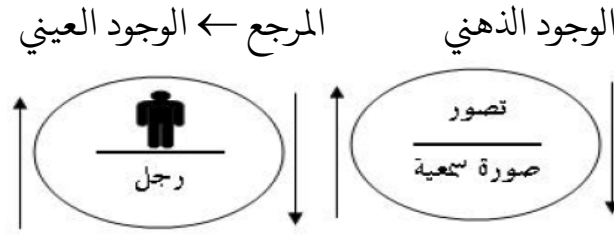
6- العلامة: (الدال والمدلول): (*Signifiant et Signifié*):

الدال والمدلول في العلامة اللسانية نفسيان يرتبطان في الدماغ بعلاقة ترابطية؛ والعلامة في الطرح اللساني الحديث تتكون من أربعة مفاهيم هي: الدال، ويتكون من الصورة الصوتية (*phonation*)، وهو التلفظ بصوت (ر، ج، ل) - مثلاً- والذي ينسحب على اصطلاح الوجود اللفظي عند الغزالي، ومن الصورة السمعية الذهنية (*Image acoustique*) التي تحصل من القراءة الصامتة. والمدلول المتكون هو الآخر من تصور (*Concept*) مفهوم الرجل وسماته، وينسحب على هذا المفهوم اصطلاح الوجود الذهني عند الغزالي، ومن المرجع





(Référant) ممثلاً في صورة الرجل كما هو في الواقع تسمى عند الغزالي بالوجود العيني¹. وبيان ذلك في الشكل الآتي:



الوجود اللفظي (ر، ج، ل)

فالعلامة في أوسع معانيها هي حاملة لمعلومة، ونحن نتحدث بدقة عن علامة حين تُستخدم إشارةً فيزيائية، يمكن أن تكون سمعية، أو كهربائية أو أفقية أو مسطحة أو غير ذلك، لنقل الخبر، وبهذا المعنى تكون العلامات أعواد نقش للشعوب البدائية، إشارات الطبل، وإشارات الإعلام والإذاعة، وإشارات المرور والحركات، ولغات الحيوانات والإنسان لم يُذكر إلا بعض منها، ويجب أن يفرق بين العلامات والمارات (رموز)، فالعلامات تؤثر إلى شيء، أمّا الرموز فهي أمارات على وجود شيء، كالدخان أمانة على النار... وقد كان معروفاً أيضاً أنّ العلامات اللغوية هي ربط بين تصوّر وصورة صوتية، فإن لم يكن فردينان دي سوسير بذلك مؤسس علم العلامات اللغوي، فهو من جانب آخر ذلك الذي نهض بكلّ المفاهيم الحالية للعلامات في تأليف معيّن [إلى مستوى أعلى]، وهو الذي رتبّ العلامات في أنظمة علاميّة، والذي حدّد خواص العلامة اللغوية، والذي بحث العلاقات بين لغات إنسانية طبيعية وأنظمة علاميّة أخرى وتوجّز الآن تفسيراته حول ذلك في هيئة فرضيات، تبين أهمّ أفكاره بشكل واضح فيما يأتي:

1- العلامة اللغوية كلّ يتكوّن من تصوّر وصورة صوتيّة، إذ يستخدم المصطلحين (signifié - signifiant)، أي (المدلول والدال)، وكلا جانبي العلامة غير منفصل، بل مرتبط كل منهما بالآخر، ويستلزم كل منهما الآخر، في صورة أنّ:

- اللّغة يمكن أن تقارن بسطحي الورقة: التفكير هو الجانب الأمامي لها والصوت هو الجانب الخلفي، ولا يستطيع المرء أن يقطع الجانب الأمامي دون أن يقطع الجانب الخلفي في الوقت

¹ - ينظر: رابح بوحوش: اللسانيات وعلوم اللغة العربية، ص 83، 84.



نفسه، وكذلك لا يستطيع المرء في اللغة أن يفصل الصوت عن الفكرة، ولا الفكرة عن الصوت.

- كلا الجانبين نفسين والدال أيضاً، فالصورة الصوتية، ليس صوتاً (مركباً صوتياً) واقعياً، بل يركز على تجريد من أصوات (مركبات صوتية) واقعية كثيرة، لها كلها العلاقة ذاتها بالمدلول، التصور فالصورة الصوتية: "ليست الصوت الفعلي الذي هو ليس إلا شيئاً فيزيائياً، بل إن الانطباع النفسي لهذا الصوت قد جعل ذلك على أساس أوجه إدراكنا الحسي حاضراً فهو حسي، وحين نطلق عليه أحياناً صفة "مادي" فإنه يُقصدُ بذلك أيضاً ما هو حسي، وذلك على النقيض من العنصر الآخر، أي التصور، الذي هو أكثر تجريداً".¹

- تنظم العلامة اللغوية داخل الأنظمة العلاماتية التي تترابط فيها العلامات المفردة ترابطاً منظماً، فقيمتها لا تحصل إلا عبر ربطها بالعلامات الأخرى للنظام ذاته.

- لا يرى سوسير نظام العلامات إلا في اللغة المعينة وحدها، إذ أنه ينكر على الكلام النظامية، وهكذا تعمل أنظمة علاماتية أخرى مثل النظام اللغوي، ولذلك يطالب بتطوير علم لأنظمة العلامات لا يكون فيه الكلام الإنساني إلا موضوعاً للبحث إلى جانب أنظمة علاماتية أخرى، وقد اقترح اسماً لهذا العلم هو علم العلامات "Semeologie"، وهذا العلم قد أنشئ في قرننا، وأعد له مجال تطبيق واسع.

- وصف سوسير العلامة اللغوية بالاعتباطية والأفقية باعتبارهما خاصيتين أساسيتين: فقد كانت الأخيرة في بادئ الأمر غير إشكالية - فالعلامات تُنطق أفقية، متجاوزة أمّا الأولى فتتطلب بعض تروٍ وتدبر، فاعتباطي تعني في هذا السياق أن الرابط بين التصور والصورة الصوتية ليس سبباً، مثال ذلك: لا يوجد أيّ تعليل لأن نسمي "الشجرة" ذلك النبات ذي الخواص النباتية المحددة للغاية، أوضح إشارة إلى ذلك التعليل الخاطئ، هو وجود لغات كثيرة بدلاً من واحدة، هذا النبات يسمى في اللاتينية arber، وفي الإنجليزية tree، ولذلك يتحدث بدلاً من الربط السببي عن علاقة إلحاق، ومن جهة أخرى: ينبغي أن تتجنب الترجمة المقترحة كذلك الوصف (أي الاختيار)، لأن العلاقة العلاماتية ليست على هوى كل فرد، إذ لا يجوز له

¹ بريجتيه بارتشيه، مناهج علم اللغة من هرمان باول إلى ناعوم تشومسكي، تر: سعيد حسين بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2004، ص 202.



أن يختار العلامات كيفما يشاء، بل يجب ان يستخدم ما هي موجودة من قبل إذا ما أراد أن يفهم: "تتطلب كلمة "كيفما اتفق" معها ملاحظة، فلا ينبغي أن تثير التصوّر وكأنّ التسمية تتوقف على الاختيار الحرّ للشخص المتكلم (سوف نرى فيما يلي أنّه ليس في مقدرة الفرد أن يغيّر أي شيء في العلامة المستعملة فيما مضى لدى جماعة لغويّة)، ويعني ذلك أنّها لا تبعث على شيء، أي أنّها "كيفما اتفق"، في علاقتها بالمدلول الذي ليست له بها في الواقع أيّة تبعية طبيعية.

7- البنية "Structure": وقد حدد بياجيه خصائصها فيما يأتي¹:

أ- الشمولية (الكلية): ويراد بها التماسك الداخلي للوحدة، إذ هي كاملة في ذاتها كالخلية الحية تنبض بالحياة التي تشكّل قوانينها، وطبيعة مكوناتها الجوهرية، حيث إنّ كل مكون من هذه المكونات لا يجد قيمته إلاّ في نسيج كل شامل يسمّى الوحدة الكلية.

ب- التحول: وهي عملية توليد تنبع من داخل النسيج، كالجملة التي يمكن أن يتولّد منها عدد من الجمل تبدو جديدة.

ج- التحكم الذاتي: ويعني أن البنية كيان عضوي متسق مع نفسه منغلق عليها ومكتف بها، فهي كلّ متماسك له قوانينه وحركته وطريقة نموه وتغييره، ومن ثم فهي لا تعتمد على عوامل خارجة عنها، إذ تستغني بنفسها عن غيرها.

وعليه فالمكونات المشكلة للبنية محكومة دائماً بقوانين صارمة ترسخ نظامها، وتضفي عليه خصائص كلية. إذ لا يمكن التعرف إلى البنية إلاّ من خلال العلاقات التي تحكم مكوناتها ذاتها، في تماسك داخلي للوحدة وهذا ما يؤكد ضبط البنية استناداً إلى حركتها الذاتية وإلى تحولاتها. فالتحوّلات لا توجد أبداً إلاّ عناصر تنتمي للبنية ذاتها، وتخضع لقوانينها وتحافظ عليها، ولا تعود إلى ما هو خارج حدودها. وبهذا المعنى نجد أن البنية تنغلق على ذاتها مستغنية بنفسها عن غيرها. وهذا ما دفع "اللاندا" لكي يقدم في معجمه تعريفاً للبنية يؤدي إلى الفهم المشار إليه، إذ يقول: (إن البنية هي كل مكون من ظواهر متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكن أن يكون ما هو إلاّ بفضل علاقته بما عداه). ولا شك أنّ هذا التعريف يصدق على جميع أنواع البنيات مهما كان نوعها، بيد أنّ الاتجاه البنيوي المعاصر قد حرص على

¹ - ينظر: رابح بوحوش: اللسانيات وعلوم اللغة العربية، ص 43.



تأكيد حقيقة أخرى هامة، ألا وهي (أنّه لا يمكن أن تكون ثمة "بنية" إلاّ حيث تكون ثمة "لغة")¹.

فما يمكن قوله: إنّ لسانيات "دي سوسير" - والبنوية بشكل عام - ذات المعنى تقدّم أنموذجاً علمياً قابلاً للتطوير والتوسع²، وهو ما تجسد فعلاً في النظريات اللسانية التي عكبت نظرية "دي سوسير" وأهمها: المدرسة الوظيفية ببراغ، والغلوسماتيك بكونبنهاغن، والتوليدية التحويلية في الولايات المتحدة الأمريكية. هذه النظريات كلها تنطلق من النواة الأولى التي وضعها "دي سوسير" في دراسة اللغة الإنسانية وهي دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

باختصار: إنّ نظرية سوسير اللغوية قدّمت بواعث فكرية إيجابية كافية، مثل أسباب الاحتكاك حتى يستطيع أن يؤثر علم اللغة على العقود التالية تأثيراً شديداً، فقد اتحدت كل المدارس في النظر إلى اللغة على أنها ظاهرة تتجاوز كل الجمل، التي نتجت عرضاً عن مجموعة معيّنة من البشر، اللغة على الأرجح نظام بنيوي، كلّ لا يتكوّن من تراكم الجزيئات بل يبني من عناصر تقع في علاقة تبادل بعضها مع بعض، نظام كلّ عناصره متماسكة كما نصّ عليه سوسير.

¹ زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنوية، مكتبة مصر للمطبوعات، ط1، 1990، ص 38، 39.
² ينظر، حافظ إسماعيل علوي وأحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2009، ص 79.